

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَرَقَّةٌ بَحْثِيَّةٌ بِعَنْوَانٍ:

" **الْقُدْسُ مِنْ حَيْثُ الْأَفَاطِ الدَّالَّةُ عَلَيْهَا فِي شِعْرِ سَمِيحِ الْقَاسِمِ** "

(دِرَاسَةٌ دِلَالِيَّةٌ)

د . جَلالُ فَيضِلُ إِبْرَاهِيمَ عَيْدٍ - أَسْتَاذُ عِلْمِ اللُّغَةِ المُسَاعِدِ - جَامِعَةُ الْقُدْسِ المَفْتُوحَةِ .

الْبَرِيدُ الإِلِكْتُرُونِيّ : jeid@qou.edu

جَوَّال : 887172 - 0599

# " الْقُدْسُ مِنْ حَيْثُ الْأَفَافِ الدَّالَّةُ عَلَيْهَا فِي شِعْرِ سَمِيحِ الْقَاسِمِ "

(دراسة دلالية)

## مُلَخَّصٌ:

لقد جاءت هذه الدراسة لتتناول حضور القدس في شعر سميح القاسم؛ حيث تتناول الألفاظ الخاصة بالقدس، ودلالاتها التي استلهمها من التراث الديني على تنوعه بما يشي بقداستها، ومكانتها التي رسخت في القلوب وفي العقول، وتعمقت في الوجدان؛ حيث نجد القاسم قد وظف كثيراً من معاني الإنجيل والتوراة والقرآن الكريم وألفاظها في شعره، وبخاصة في ديوانه "أخذة ييوس".

## Abstract:

### "Jerusalem and its Lexical Indicators in Samih Al-Qasim's Poetry"

Jerusalem has been in the heart of his Al-Qasim's poetry to the extent that he named one of his poetry collection (The amulet of The Princess Yabus ) after the ancient name of Jerusalem Yabus. Describing Jerusalem, Al-Qasim was inspired by what has been written in the Holy Quran, the Bible , the Gospel about Jerusalem in addition to the stories of prophets as a means to explore the connotational meanings of the lexical components related to Jerusalem. The objective was then to show the historical and religious position of Jerusalem throughout history. The use of Jerusalem and its synonymous names reflect the richness of Al-Qasim's cultural and historical knowledge which enabled him to describe the social and political situation of Jerusalem over time especial under the Canaanite era.

## المقدمة

لقد احتلت مدينة القدس مكانة مميّزة في قلوب الملايين من العرب والمسلمين وأحرار العالم لا تكاد تخفى على أحد من الدارسين والمهتمين بعدالة القضية الفلسطينية بعامّة، والقدس بخاصّة. وكانت قد نالت هذه المدينة العتيقة العريقة بعد تأسيسها قبل خمسة آلاف عامٍ أو يزيد على أيدي اليوسيين العرب مكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة، وحظيّت من التشريف والتكريم ممّا لا يُتاح لغيرها من المدن، وقد نالت من المحن والأحوال بعد أن عبثت بها أيدي الخراب والدمار، ما حفّر في تضاريسها عميقاً، وبقيت آثارها شاهداً عليه إلى يومنا هذا؛ لكنّها استعادت هديرها وأمنها في عصر النبوة وبعده بمئات السنين؛ بحيث أصبحت مشهداً لا يكاد يغيب عن أنظار الأدباء والكتّاب والمتقّفين من مختلف المشارب والأجناس، فقد ارتبطت بالأديان السماوية، وأصبحت مهوى أفئدة المؤمنين كافة، ولكنها ارتبطت بصورة خاصّة بالإسلام والمسلمين من خلال المكانة التي احتلتها في العقيدة الإسلامية وفي التاريخ الإسلامي وفي تراث المسلمين منذ أن حَفَّ إليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ليتسلّمها من أهلها، قاطعاً

عهداً لله أن يَصُونَ أموالَهُم وكنائسَهُم وأن يزعى حُقُوقَهُم، ويُحَقِّقَ لَهُم الأَمَنَ والسَّلَامَةَ؛ فَمُنذُ ذلكَ اليَومِ إلى الغَروِ الصُّهيونِيِّ للقدسِ والمُسلمونَ يحتَضِنونَ المَدينَةَ المُقدَّسَةَ احتِضَانِ الأُمِّ لوليدِها، ويحُنُّونَ إليها حَنَوَ المُرضِعةِ إلى رُضيِها. وإنَّ تَدميرَ القُدسِ من قِبَلِ الاِحتِلالِ الصُّهيونِيِّ، ومُحاوَلَةَ تَهييدِها، وتَزييفِ تاريخِها، جَعَلَهَا هاجِساً في المُخَيَّلَةِ الشِّعْرِيَّةِ الفِلسطِينِيَّةِ، وَقَد شكَّلَ الشُّعراءُ الفِلسطِينيونَ المُعاصِرُونَ - ومنهُم سَميحُ القاسِم، ومُحمودُ دَرويشَ وراشدُ حُسينَ ومُعينُ بسيسو،... وغيرَهُم - من خِلالِها جَمالياتِهِم الشِّعْرِيَّةِ؛ فَصَورَةُ القُدسِ المُقاوِمَةِ هِيَ بِمِثابَةِ البَيتِ الذي يَشكُلُ الجَسَدَ والرُوحَ، وَقَد تَنتَهِى نَهايةً فَاجِعَةً عَندما يُفَقَدُ هذا البَيتُ، فَيُعَمَدُ إلى اسِترِجاعِهِ والانتِسابِ إِلَيْهِ. فَمِنَ القُدسِ نَبَدًا الحَربُ وَمِنَها يَبْدَأُ السَّلَامُ.

وشاعَرنا الكَبيرُ: سَميحُ القاسِم، وهو ابنُ فِلسطِينِ الذي عَاشَ القِضيَّةَ الفِلسطِينِيَّةَ واكتَوَى بِعَذابِها لَه حُضورٌ في هذا المَشهدِ الذي نُحاوِلُ تَسلِيطَ الصَّوَرِ عَلَيهِ في ثَنايا هذا البَحثِ الذي اعتمَدَ البَاحِثُ فِيهِ على المَنهَجينِ: الوِصْفِيِّ والتَّخيلِيِّ.

ويُعَدُّ الشَّاعِرُ سَميحُ القاسِم (1939م - 2014م) مِن رُموزِ الشِّعْرِ الفِلسطِينِيِّ الحَديثِ، وَمِنَ أَبرزِ شُّعراءِ فِلسطِينِ المُناضِلينَ الذين دَفَعوا ثَمَنَ نِضالِهِم ووَطَنِيَّتِهِم خَلَفَ القُضبانَ؛ حيثُ سَجَنَ غيرَ مرَّةٍ بسببِ أشعارِهِ النَّارِيَّةِ وَمَواقِفِهِ السِّياسِيَّةِ، وَهُوَ مِنَ الذينَ أَوَّلُوا القُدسَ اهتِماماً في قِصائِدِهِم؛ حيثُ حَصَّها في أَغلبِ دَواوِينِهِ الشِّعْرِيَّةِ، بَلْ أَطَلَقَ على أَحَدِ الدَواوِينِ اسْمَ "أَحْذَةُ الأَميرَةِ يَوس" ، مُؤمِناً بأنَّ القُدسَ لَيسَتُ مُجرَدَ جُغرافِيا، واحْتِلالُها لَيسَ مُجرَدَ عُدوانٍ عابِرٍ عَلَيها؛ بَلْ هِيَ بِالنِّسبَةِ لَه وَلِغيرِهِ مِنَ الشُّعراءِ المُخْلِصينَ عُدوانٌ على حُرِّيَّتِهِ وَكِيانِهِ وتَماسُكِهِ وَكِينونَتِهِ وَبُهْجَتِهِ الإِنسانِيَّةِ.

#### • المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الدِّلالَاتُ المُستَوحاةُ مِنَ الدِّيانَاتِ الثَّلاثِ:

لقد اسْتَحْضَرَ القاسِمُ مَدينَةَ القُدسِ في غيرِ قَصيدَةٍ لِلتَّعبيرِ عَنَ عِلاقَتِهِ الحَضارِيَّةِ بِها، فَاسْتَنطَقَها وَنَقَلَ تاريخَها وَصُموذَها، وإِشراقَها التُّورانيَّ، وإِظلامَها بِالاحتِلالِ الصُّهيونِيِّ الغاشِمِ، مُستَوحِياً عِبارَاتٍ وَمَعانِي مِنَ التُّوراةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرآنِ الكَرِيمِ خاصَّةً بِمَدينَةِ القُدسِ، إِضافةً إلى قِصصِ الأَنْبياءِ؛ لِيُكشِفَ اللَّفْظَ وَيُحَصِّصَ المَعنى الدَّالَّ على مَكانَةِ هَذِهِ المَدينَةِ وَقُدسِيَّتِها، وَلِتَكونَ ظِلالُ المَعانِي أَكثَرَ إِضاءةً وَأشدَّ عُمقاً على المَدلولِ؛ فَنُعْطِي المُتلقِي دِلالَاتٍ مُشعَّةً وَمُتَشعِّبَةً لِلصَّورَةِ، وَهَذَا - مِمَّا لا شَكَّ - يُنرِّبُها.

أَوَّلًا: المَعانِي المُستَوحاةُ مِنَ التُّوراةِ:

يقولُ الشَّاعِرُ، سَمحُ القاسِم:

الأرضُ خَربَةٌ وَخالِيَةٌ وَعَلى وَجْهِ الغَمْرِ

ظُلْمَةٌ وَروْحُ اللهِ يَرفُ عَلى وَجْهِ المِياهِ ...

قُولِي: " لِيَكُنْ نورٌ " فَيَكُونُ نورٌ (2).

في النِّصِّ التُّورانيِّ (المزمور 137، والمزمورُ عِبارَةٌ عَنَ نُصوصِ تَوراتِيَّةٍ يَؤمِنُ بِها اليَهُودُ، وَقَد تَمَّ تَحرِيفُها لِثَلاثِمِ طَبِيعَتِهِم): عَندما خَلَقَ اللهُ بِدايَةَ الكَونِ، قال: " لِيَكُنْ نورٌ " فَيَكُونُ نورٌ . أَمَّا سَميحُ القاسِم - هُنا - فَيَجْعَلُ مِنَ

المُخَاطَبَةِ (أَنْتِ) ذَاتِ مَكَانَةٍ مُقَدَّسَةٍ، بَلْ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا، فَقَدْ مَنَحَهَا صِفَةَ الْخَلْقِ بِقَوْلِهِ: " قَوْلِي { لِيَكُنْ نَورٌ } فَيَكُونُ نورٌ ".  
وعندما يقولُ القاسم:

**بِاسْمِكَ أَنْتِ كَأَنَّكَ كُنْتِ دَائِمًا (3).**

نَسْتَحْضِرُ فِي أَذْهَانِنَا أَنَّ الْقُدْسَ ظَلَّتْ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ إِحْدَى الْبُؤْرِ الْمُرْكَزِيَّةِ لِلْوَعْيِ الدِّينِيِّ الْيَهُودِيِّ، حَيْثُ تَظْهَرُ الْإِشَارَةُ إِلَى اسْتِعَادَةِ الْقُدْسِ فِي الصَّلَاةِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي الدِّيانَةِ الْيَهُودِيَّةِ (شُمونا أسراي) الَّتِي تُتْلَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَوْمِيًّا. كَذَلِكَ، فَإِنَّ عِبَارَةَ شَهِيرَةً تَقُولُ: " إِنْ نَسَيْتُكَ يَا أُورُشَلِيمَ تُنْسِي يَمِينِي " لَهِيَ جُزْءٌ مِنْ تِلَاوَةِ الشُّكْرِ الَّتِي يُرَدِّدُهَا الْيَهُودُ بَعْدَ تَنَاوُلِ الْوُجَبَاتِ خِلالَ أَيَّامِ الْأَسْبُوعِ؛ حَيْثُ جَاءَ سَمِيحُ الْقَاسِمِ لِيُوكِّدَ هَذِهِ الدِّلَالَاتِ فِي قَصِيدَتِهِ " إِذَا نَسَيْتُ يَا قُدْسُ "، فَيَقُولُ:

**لَتُنْسِنِي يَمِينِي**

**إِذَا نَسَيْتُ الْقُدْسَ**

**وَلْتُخَلِّدْ عَلَيَّ جَبِينِي**

**وَضَمَّةُ عَضْرِ الْمَوْتِ وَالْجُنُونِ**

**وَلتُنْسَ وَجْهِي الشَّمْسُ**

**وَلِيُنْعَبِ الْبُومُ عَلَيَّ صَوْتِي وَأَطْفَالِي وَزَيْزَفُونِي**

**إِذَا نَسَيْتُ الْقُدْسَ ! (4).**

وَإِنْ كَانَ الْيَهُودُ يَسْتَمِدُّونَ شَرْعِيَّةً مَطَالِبِهِم بِالْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ مِنْ تَعَالِيمِهِمُ الدِّينِيَّةِ الْمُسْتَوْحَاةِ مِنَ التَّوْرَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ التَّوْرَةَ ذَاتَهَا تَقُولُ: " مِنْ أَجْلِ أَنْ مَلَكَ يَهُودًا أَسَاءَ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ عَمِلُوا الْأُمُورِ الَّتِي قَبْلَهُ، هَاأَنْذَا أُجْلِبُ شَرًّا عَلَى أُورُشَلِيمَ وَيَهُودًا، وَأَمْسُخُ أُورُشَلِيمَ كَمَا يَمْسُخُ وَاحِدَ الصَّخْنِ " فَأَيُّ قَدَاسَةٍ وَأَيُّ وَعْدٍ إِلَهِيٍّ هَذَا الَّذِي يَبْقَى بَعْدَ أَنْ يَمْسُخَ " الرَّبُّ " " أُورُشَلِيمَ " وَيَرْفُضَهَا. وَلَوْ كَانَ الْهَيْكَلُ وَالْقُدْسُ مُقَدَّسَيْنِ لَدَى الْيَهُودِ - كَمَا يَدْعُونَ - لَمَا عَبَدَ الشَّعْبُ الْإِسْرَائِيلِيَّ آلِهَةً أُخْرَى. نَاسِينَ الرَّبَّ وَهَيْكَلَهُ وَنَاعَتَيْنِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَالْهَيْكَلِ بِأَبْشَعِ الْأَوْصَافِ، وَهُوَ مَا يَنْصُحُ مِنَ تَوْرَاتِهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ (5).

**ثَانِيًا: الْمَعَانِي الْمُسْتَوْحَاةُ مِنَ الْإِنْجِيلِ:**

تُعَدُّ (أُورُشَلِيمَ) الْقُدْسَ الْمَكَانَ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ (السَّيِّدُ الْمَسِيحُ) يُعِيمُ فِيهِ وَيَبَشِّرُ فِيهِ وَحَيْثُ تُوْفِي وَبُعِثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَفِي حِينِ أَنْ الْعَامِلَ السَّمَاوِيِّ بَدَلًا مِنَ الْأَرْضِيِّ هُوَ الَّذِي يَلْعَبُ الدَّوْرَ الْأَكْبَرَ فِي الْمَسِيحِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ الْأَمَاكِنِ الْوَارِدَةِ فِي ( الْعَهْدِ الْجَدِيدِ ) مِثْلَ مَوْقِعِ رِسَالَةِ الْمَسِيحِ وَالْآمِ الْمَسِيحِ اسْتَنْقَطَبَتِ الْحُجَّاجَ وَالْمُصَلِّينَ خِلالَ قُرُونٍ عَدَّةٍ، مِنْ ضِمْنِ تِلْكَ الْمَوَاقِعِ: كَنِيسَةُ الْقِيَامَةِ وَحَدِيقَةُ الْكَنِيسَةِ الْجَثْمَانِيَّةِ وَمَوْقِعُ الْعِشَاءِ الْأَخِيرِ، وَطَرِيقَ الْآمِ الْمَسِيحِ مَعَ مَحْطَّاتِهَا الْأَرْبَعِ عَشْرَةَ. يَنْتَمِي الْمَسِيحِيُّونَ فِي (أُورُشَلِيمَ) الْقُدْسِ إِلَى الْكِنَائِسِ وَالطَّوَائِفِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْمَسِيحِيَّةِ، وَيَنْتَمِي بَعْضُهُمْ إِلَى الْكِنَائِسِ الشَّرْقِيَّةِ، فِي حِينِ يَنْتَمِي الْبَعْضُ الْآخَرُ إِلَى الرُّومِ الْكَاثُولِيكِ وَالْكِنَائِسِ الشَّرْقِيَّةِ الْمَتْحَدَةِ بِرُومَا وَالْبِرُوسْتَانْتِيَّةِ (6).

ولقد وظَّف القاسمُ كثيراً من معاني الإنجيل وألفاظه في شعره. ومردُّ ذلك إلى الانفتاح الثقافي الذي يعيشه الفرد داخل حدود عام (1948م)، فنجدُه يستخدمُ ألفاظاً مثل (القديس بطرس) (7)، ويضمِّنُ المعاني المسيحيَّة، فيقول.

يلهون بصلبِكَ في الميدان  
يلهون بصلبي في الميدان  
وأفِيقُ على ضربةِ الإيمان (8).

ثالثاً: المعاني المُستوحاة من القرآن:

أمَّا في الديانة الإسلامية فلِلقُدسِ مكانةٌ خاصَّةٌ لدى المسلمين، لا تقلُّ عن مكانتها لدى أصحابِ الديانات السماويَّة الأخرى؛ فهي أولى القبلتين، وثالثُ المسجدين الشريفين اللذين تُشَدُّ إليهما الرِّحال، وإليها أُسريَ بالرَّسولِ الكريم - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم - ومنها عرجَ إلى السَّماء، وفيها صَلَّى بالملائكة . وقد نصَّ القرآنُ الكريمُ على أنَّها مُباركة، باركها ربُّ العالمين هي وما حولها وذلك في الآية الأولى من سورة الإسراء: " سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لئريه من آياتنا إنه هو السميع البصير (9) ".

هذا، بالإضافة إلى ما ذكره المُفسِّرون في تفسير بعض آيات القرآن الكريم وما حوته من إشاراتٍ إلى مكانة القُدس في الإسلام. كما أشارَ إليها الرَّسولُ الكريم - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم - حينما حضَّ على زيارتها في الحديث الصحيح: " لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى (10) ". يقتبسُ القاسمُ ألفاظاً من القرآن الكريم، لتجسيدِ صُوَره الشعريَّة، لإضفائها على الصيغة مزيداً من الواقعية، وجعلها أشدَّ أثراً وأعمق نفوذاً، وتصبغ المعنى بدلالة تتَّسُم بالوضوح والدِّقة، وعندَ استقراءنا للمجموعة الكاملة يتبيَّنُ لنا أنَّ سميحاً يقتبسُ من القرآن الكريم ألفاظاً ومعاني آياتٍ كاملة؛ فهو يصبغ شعره بالألوان والأصباغ القرآنية عمداً وتلقائيَّة لإثراء الصُّور الشعريَّة التي تُعطي دلالاتٍ وإيحاءاتٍ مُغايرةٍ لمعناها الأصلي (11).

ما "سقر" لا بُدَّ أن أمضي  
عذابي وردةً وفمي حَجَر (12).

القُدسُ هي القَلْبُ النابضُ للأُمَّة، ولا بُدَّ من الحفاظِ عليها؛ لأنَّها الامتدادُ للإنسانِ العربيِّ والمُسلمِ، يقولُ القاسمُ:

مُباركةٌ أنتِ

يا أوَّلَ الحَبِّ

صَحراء

مَنْ قايضَ الماءَ بالنَّارِ!؟

مَنْ جرَّدَ السِّرَّ من قُدسِهِ!؟

ومَنْ جرَّدَ القُدسَ من سِرِّها!؟ (13).

لعلَّ استخدامَ الشَّاعرِ أسلوبَ الاستفهام، وتكراره الجُمْلَ الاستفهاميَّة المُصدِّرة بِ(مَنْ) ما هو إلا نوعٌ من التَّخْفِيزِ للخُروجِ من دائرةِ الاستسلامِ إلى دائرةِ الفِعلِ؛ حيثُ استخدمَ اللُّغة بما يتلاءمُ مع مَشاعره؛ فجاءتُ لُغته طابِعةً شكَّها بطريقته الخاصَّة.

والقدس بين النكبة والنكسة قد تغيّر وجهها، وتغيّرت معالمها باختلال العدو الصهيوني لها، فلم تُعد تلك المدينة  
تفتخر بأنها عروس العروبة، ولم يعد لها ذلك الحضور، ولهذا يتساءل الشاعر:

ما اسمك يا عروس؟!

نسيت؟ ... ييوس.

ليل على القباب

\*\*\*\*\*

مئذنة سادرة في الدهر

وامرأة بالباب

مُرتابة بسائح يمرُّ

وعسكرٍ أعراب (14).

يتّضح من هذا المقطع شوق الدات الشاعر إلى القدس، ليس باعتبارها مساحةً جغرافيةً فحسب، بل لأنها تشكيلٌ  
روحيٌّ ودينيٌّ مُشبع بالحضور التاريخي العربي الإسلامي، ولا يمكن اقتلاعه من النفوس (15). وقد جاء المكان صورةً  
للوضع الاجتماعي والسياسي في هذه المدينة، حيثُ وُقِّع القاسم في إعطاء هذه الصورة، وهذا يدلُّ على عمق شعوره  
بهذه المدينة، ومدى اندماجه معها؛ فالعلاقة بين الإنسان والمكان تترك أثرها على شعر الشاعر، فالبعد بين القاسم  
والقدس بعدٌ مكانيٌّ وليس بعداً روحياً (16).

#### • المبحث الثاني: الألفاظ الدالة على القدس في بقية شعر القاسم:

لقد جاء اهتمام القاسم في شعره بمدينة القدس ضمن مساحة واسعة؛ إذ أفرد لها ثلاث قصائد (17): جاءت  
الأولى بعنوان: "زنايق لمزهرية فيروز"، والثانية فهي بعنوان: "فُسَيْفَساء على قبة الصخرة"، وأما الثالثة فهي  
موسومة بعنوان: "أخذة الأميرة ييوس". وعندما نتصفح المجموعة الكاملة نطالعنا مجموعة متنوعة من الألفاظ الدالة  
على القدس تنبئ عن مدى ارتباط الشاعر بهذه المدينة المقدسة، كما تنم عن سعة ثقافته الدينية والتاريخية التي حاول  
توظيفها في قصائد مختلفة، جاء منها:

1 . ييوس: إذا كان (موتيف) القدس قد تردّد في رموز الديانين الإسلاميّة والمسيحيّة بشكلٍ خاص، فإن كثيراً من  
الأدباء والشعراء (ومنهم سميح القاسم) من قد عاد إلى التاريخ القديم للقدس مستخدماً كلمة (ييوس)، وهو الاسم الأول  
لمدينة القدس (منسوب إلى اليبوسيين، بُنَاة القدس الأوائل، وهم بطنٌ من بطون العرب القدماء) مؤكداً الامتداد  
التاريخي للمدينة، ممّا يجعل المتلقّي يشعر بمكانتها وبأهميتها الروحية والقومية والوطنية. وها هو شاعرنا يُصِدِر  
ديواناً مستقلاً بعنوان "أخذة الأميرة ييوس" يضمُّ سبع قصائد تبدأ بقصيدة "الديان قبل الأخير: عن واقع الحال مع  
الغزاة الذين لا يقرؤون"، ومنها الديوان بالقصيدة السابعة "أخذة الأميرة ييوس" التي اتخذ منها الديوان عنواناً له.  
وتشمل القصيدة سبع أخذات، والأخذة لغة: هو ما يُحتال به في السحر، والأخذ: هو الأسير، ويُقال: هو أسير فتنة  
وأخذٌ مخنة. والأخذة: المرأة تُسبى في الحرب، وما اغتصب من شيء فأخذ عنوة (18) .. وقد لاحظنا أنّ

الشاعر ضمّن القصيدة سبعة (تخطيطات) هي رقي، فيها رسومٌ وحروفٌ في أشكالٍ متباينة، والقصيدة تقع في سبع  
مقطوعات، وفيها ردٌّ غير مباشرٍ على أولئك الذين يدعون بداية تاريخ القدس بأنها كانت في زمن الملك داود.

والشاعر - هنا - يلجأ إلى لغة السحر تارة، وإلى اللغة الصوفية تارة أخرى، وكأنه كاهنٌ جديدٌ يتلاعبُ بالحروفِ القدسية . ومن هنا نجدُ القاسمَ يبدأ قصيدته بلوحةٍ طلسميةٍ يُعبّرُ عنها بالأشكالِ والرموزِ، مُترجماً ذلك بقوله:

جَزَعًا مَسْكُونًا بِالْحَمَى.

يَرْقُمُ حَيُوثَ الْأَعْمَى.

فِي لَوْحِ الْأَجْرِ الْمَدْهُونِ بِزَيْتِ الْمَعْبُدِ.

أُخَذَةَ حَيُوتِ الرَّائِي.

لأميرةِ مُدُنِ الدُّنْيَا ونِسَاءِ الْأَرْضِ " يَبُوس " (19).

مما يوحي به هذا المقطع الشعري الذي استهلَّ به القاسمُ الأخذةَ الأولى ما يفعله (حيُوتِ الأعْمَى) وهو يرقُمُ في لَوْحِ الْأَجْرِ الْمَدْهُونِ بِزَيْتِ الْمَعْبُدِ ما يعتقدُ به من وشمٍ وعلاماتٍ سحريةٍ تحرسُ أميرةَ مُدُنِ الدُّنْيَا ونِسَاءِ الْأَرْضِ (يَبُوس) من غدرِ الغايرِ وطمعِ المحتلِّين، لتظلَّ صامدةً في وجهِ الغزاةِ ، رابطاً حاضرها بماضيها؛ إذ إنَّها محروسةٌ مهما استطلَّ الشرُّ، وعظُمَ أمرُ الغزاةِ، حيثُ يُخاطَبُ الإلهُ (أيل) المقتدرُ على الرغباتِ بقوله:

يا " إيل " المقتدرُ على الرغباتِ

.....

يا " إيل " القدوسُ

صرفَ قلبِ يَبُوسِ

من سينِ الساحرِ

حتى سينِ المسحورةِ والمسحورِ .. الممسوسِ (20).

ثمَّ ينطلقُ إلى طلسمِ الأخذةِ الثانيةِ بقوله:

من كلِّ جهاتِ الأرضِ تهبُّ رياحُ الشهوةِ

لتسوقَ لِقاحِ الولدِ المسكونِ الممسوسِ

إلى أشجارِ البنتِ يَبُوسِ

تغزى من كلِّ الأثوابِ

تطردها كلُّ الأبوابِ

يأتيها الغيبُ بأنَّ يديه الكسوةِ

\*\*\*\*\*

وإليه الخطوةُ

ولديه الخطوةُ

ويكونُ الولدُ عريساً

وتكونُ البنتُ عروساً

هَذَا حُكْمُ إِلَهِ الْحُبِّ

وهذا نَجْمُ البُنْتِ يَبُوسَ (21).

ويصلُ إلى الأُخْذَةِ الثالِثَةِ مناشِداً الرَّبَّةَ " عَشْتار " قائلاً:

يا أَيُّهَا الرَّبَّةُ عَشْتارُ:

عاشِقها الماءُ الأَوْحُدُ

فاصلي قَلْبَ يَبُوسِ النَّارِ ! (22).

وفي الأُخْذَةِ الرَّابِعَةِ يَكْتَبُ كاهنُ العِشِقِ والشُّوقِ أُخْذَةً بَنَتْ تُسَمَّى يَبُوسَ إلى وِلْدِ رأسِهِ طافِحِ فَوْقَ كَلِّ الرُّؤُوسِ،

وفي قَلْبِهِ نَجْمَةٌ لا تَنَامُ ... إلى قولهِ:

ألا وارفعي وجْهها نحوَه

ألا ولْيَكُنْ قَلْبُ هذا الفَتَى البُدُويِّ الأَميرِ

مَلادَ يَبُوسِ الأَخيرِ .. (23).

وفي الأُخْذَةِ الخامِسةِ يتضَرَّعُ كاهنُ (إيل) أن تذهبَ في النَّيِّهِ يَبُوسَ؛ لأنَّ العاشِقَ وِحدَهُ هو المَنحَى والمُنجى

والدَّلِيلُ، والفارسُ وِحدَهُ يَقِطِفُ هذِي الوُرْدَةَ .. لِيَصِلَ بَعْدَ ذلكَ إلى الأُخْذَةِ السادِسةِ، وفيها تجوعُ يَبُوسُ كَثيراً، وتَضِيعُ

كثيراً، ولكنَّها تَهْتَدِي بِصَوْتِ العاشِقِ.

وفي الأُخْذَةِ السادِسةِ نَجْدُ يَبُوسَ ضائِعَةً، ولكنَّها سُرْعانَ ما تَهْتَدِي بِصَوْتِ العاشِقِ، ويُنهي القَصيدةَ بتلاحُمِ

عِشْقِي بَيْنَ العاشِقِ والمَعْشوقِ (إلى أَيْدِ تَتْبَعُهُ)، يقولُ:

ولِيَكُنْ أنْ تَضِيعَ يَبُوسَ

كثيراً تَضِيعُ يَبُوسَ

ولِيَكُنْ أَنَّها تَجْدُ القَوْتَ في بَيْتِهِ

\*\*\*\*\*

ولِيَكُنْ تجوعُ يَبُوسَ

كثيراً تجوعُ يَبُوسَ

ولِيَكُنْ أَنَّها تَهْتَدِي

بِصَوْتِهِ .. (24).

من هنا، فإنَّ يَبُوسَ من حَقِّ الفارسِ الكنعانيِّ، إِنَّها الوُرْدَةُ التي يَجِبُ أنْ تَظَلَّ له بِمُبارَكَةِ (إيل) القُدُوسِ (25).

أمَّا في الأُخْذَةِ السادِسةِ (الأخيرة) فَيُعَلِنُ كاهنُ (إيل) أَنَّهُ كاهنُ الرُّوحِ والقَلْبِ، جاءَ لِيَغْرِسَ في لَيْلِها نَجْمَهُ، حيثُ يقولُ:

أغرسُ في لَيْلِها نَجْمَهُ

وأرْفُمُ بالنَّارِ والعِطْرِ

في الماءِ والصَّخْرِ

أَرْقُمْ أَخَذْتُهَا وَأَسَمَّهَا وَأَسَمَهُ (26).

إلى أن ينتهي بقوله :

إلى أَيْدِ آيِدٍ تَتَّبِعُهُ .. (27).

\* إيلياء

يا إيلُ المقتدِرُ على الرِّغْبَاتِ

مَرٌّ ولبانٌ وبخورٌ

وحدائقُ نورٌ

يا إيلُ القدّوسِ

صَرَفَ قَلْبَ يَبُوسَ

مَنْ سَيْنِ السَّاحِرِ

حَتَّى سَيْنِ الْمَسْحُورَةِ وَالْمَسْحُورِ (28).

لقد تواصل القاسم مع الموروث الشعبي فوظف أسطورة "إيل" (وهو الإله الذي احترمه الشعوب السامية الغربية جميعها منذ أبعِدِ العُصور؛ حيثُ كان (إيل) على بلادِ كنعان جميعها) رمزَ القوَّةِ والقُدرةِ، ليكونَ لِدَيْهِ القُدرةَ على التحكُّمِ في مصيرِ يَبُوسَ، فإردّها إلى أهلها الشرعيّين - الشعب الفلسطيني - .

ولعلَّ الواقعَ المريرَ الذي تعيشه الأُمّةُ العربيَّةُ، واقع الضعفِ والهزيمة والعجزِ عن استردادِ الوطنِ المسلوبِ من أيدي المُحتلِّ الغاشمِ هو الذي جعلَ القاسمَ يلجأُ إلى قوَّةِ أسطوريَّةٍ لكي تزدَّ إليه مدينته. فهو يستلهمُ التاريخَ، كما يستذكرُ عباداتِ الأقدمين وواقعَ حياتهم ومعيشتهم واهتماماتهم.

2 . حارةُ اليهود: في مدينة يَبُوسَ، هذه المدينة العريقة في تاريخها الكنعاني، المُمتدَّة بجُذورها في أعماقِ الحضارةِ البشريَّةِ، يُصِرُّ العدوُّ الصُّهيونيُّ على ادِّعاءاته بأحقِّيته فيها، ويرجع هذا الحقُّ إلى وجوده في هذه المدينة في مرحلةٍ من تاريخه، لقد استطاع العدوُّ أن يغرسَ في جسدِ يَبُوسَ ذلك المِسمارَ الذي يُثبَّتُ فيه وجوده تاريخياً في هذه المدينة، فمِسماره هو حارةُ اليهود (أو حارةُ الشَّرَفِ كما يُسمِّيها المُقدِّسيون)، وحائطُ المَبْكَى.

رَأَيْتُ مِسمارَ جُحَا

مفقودٌ مَوْجُودٌ

رَأَيْتُ مِسمارَ جُحَا

مَوْجُودٌ مفقودٌ

رَأَيْتُ مِسمارَ جُحَا

في حارةِ اليهودِ (29).

جاءت القدسُ في هذا المقطع من خلال حارةِ اليهودِ، ومن خلالِ هذا المكانِ أظهرَ القاسمُ الوجودَ اليهوديَّ في هذه المدينة العربية، وهذا الوجودُ الذي بدأ يتغلغلُ في جسدِ هذه المدينة ساعياً إلى إلغاء هويَّتها العربية. وقد وظَّفَ القاسمُ العبارةَ الشعبيَّةَ (مِسمار جُحَا) معتمداً على الخلفيَّةِ التراثيَّةِ لإحدى حكاياتِ جُحَا، ليؤكِّدَ بطلانَ وجودِ الكيانِ

الصُّهْيُونِيّ فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ الْمَقْدَّسَةِ، وَلَعَلَّ تَكَرَّارَهُ عِبَارَةً (رَأَيْتُ مِسْمَارَ جُحَا) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لِتَنْبِيهِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى الْخَطَرِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي يُهَدِّدُ الْمُدْنَ الْفِلَسْطِينِيَّةَ.

3 . الزُّنْبُقَةُ: يَرْمِزُ سَمِيحُ الْقَاسِمِ إِلَى الْقُدْسِ الْعَتِيقَةِ بِالزُّنْبُقَةِ (زُنْبُقَةُ حَزِينَةٍ ، زُنْبُقَةُ بَرِيئَةٍ ، زُنْبُقَةُ رِيَانَةٍ) مِمَّا يُبِيرُ أَنَّ لَدَى الْقَاسِمِ تَعَدُّدًا وَتَنْوَعًا فِي الدَّلَالَاتِ (30)، عَلَى نَحْوِ مَا يَنْضَحُ فِي الْأَسْطُرِ الْآتِيَةِ مِنْ قَصِيدَةِ " زُنَابِقُ فِي مَزْهَرِيَّةِ فَيْرُوزٍ ":

زُنْبُقَةُ حَزِينَةٍ

مَنْ دَمٍ بَنَتْ عَمَّ

وَجَدْتُهَا مَذْبُوحَةً

زُنَابِقُ حَمْرَاءِ

أَلْوَانُهَا دِمَاءِ

\*\*\*\*\*

زُنْبُقَةُ بَرِيئَةٍ

مَنْ مَقَلَّةٍ مَفْقُوءَةٍ (31).

يَصِفُ الْقَاسِمُ مَدِينَةَ الْقُدْسِ بِأَنَّهَا زُنْبُقَةٌ، لَكِنَّ هَذِهِ الزُّنْبُقَةُ حَزِينَةٌ بِسَبَبِ مُعَانَاةِ الْقُدْسِ وَمَا حَلَّ بِهَا مِنْ قَتْلِ وَدَمَارٍ وَتَشْرِيدٍ وَحِصَارٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَوَصَفَ الزُّنَابِقَ الْحَمْرَاءَ بِأَلْوَانِهَا الْجَمِيلَةِ بِالْقُدْسِ الْغَارِقَةِ فِي بَحْرِ مَنْ الدَّمَاءِ الْحَمْرَاءِ مِنْ كَثْرَةِ شُهَدَائِهَا الَّذِينَ سَقَطُوا دِفَاعًا عَنْهَا.

4 . الْأَرْضُ: الْأَرْضُ فِي شِعْرِ الْقَاسِمِ مَجَلٌّ يَقَعُ أحياناً مَوْقِعَ الْجُزءِ، الْمَقْصُودُ: الْقُدْسُ، أَوْ جَنِينِ أَوْ غَزَّةَ؛ ففِي قَصِيدَةِ " مَزْمُورِ الْفِلَسْطِينِيِّ "، يَقُولُ:

فِي الْأَرْضِ الْكَلِيمَةِ.

أَيُّهَا الْعَالَمُ

تَدْعُوكَ الْعَصَافِيرُ الْيَتِيمَةَ

مَنْ غَزَّةَ الثُّكْلَى

وَمِنْ جَنِينِ وَالْقُدْسِ الْقَدِيمَةِ (32).

5 . الشَّمْسُ: وَالشَّمْسُ فِي شِعْرِ الْقَاسِمِ تَتَصَرَّفُ لِدَلَالَاتٍ تَقَعُ عَلَى مَعْنَى الْبُعْثِ وَالتَّجَدُّدِ، يَقُولُ:

أَشْرَقَتْ الشَّمْسُ ثَانِيَةً وَاسْتَعَادَ الطَّرِيقُ

الْقَدِيمَ خُطَى الْعَابِرِينَ الْقُدَامَى (33).

وَالشَّمْسُ أَيْضاً دِلَالَةٌ عَلَى يَبُوسٍ، يَقُولُ:

مَا مِنْ يَبُوسٍ وَدَاعاً

وَدَاعاً تُرَابُ الثُّرَابِ

### الخاتمة

إنَّ شاعرنا الكبير: سميح القاسم، وهو ابنُ فلسطين الذي عاشَ القضيةَ الفلسطينيةَ واكتوى بعذاباتها، له حضورٌ في هذا المشهد، مشهدِ القدس وأهميتها التاريخية والدينية، وقد جاءت هذه الدراسة لتتناول حضورَ القدس في شعره؛ حيثُ تناولت الألفاظ الخاصة بالقدس، ودلالاتها التي استلهمها من التراثِ الدينيِّ على تنوعه، بما يثري بقداستها، ومكانتها التي رسخت في القلوب وفي العقول، وتعمقت في الوجدان.

لقد أشعرنا القاسمُ بأنَّ المكانَ (مدينة القدس) قد ذابَ في دم النَّصِّ، وأنه تحوَّلَ إلى مخلوقٍ جديدٍ يحملُ صفاتٍ جديدة. ونخلصُ إلى القول: إنَّ القدسَ ستبقى أميرةَ مُدنِ الدنيا، وستظلُّ موضوعاً شعرياً ورمزاً فلسطينياً قومياً يستخدمُ الأماكنَ المقدَّسة، ويستلهمُ التاريخَ للتأكيدِ على حقِّ الفلسطينيِّ في مدينته، مؤكداً وجوده في هذه المدينة العريقة، من خلالِ تعبيره الدائم عن مدى حبه لها. وقد يصلُ هذا الحبُّ إلى درجة العشقِ من خلالِ استلهامِ التاريخِ الكنعانيِّ ومزجه بأصداءِ كهنوته، وذلك للتدليلِ على أحقية العرَبِ في هذه المدينة، ولردِّ على المُدَّعين بها.

هذا، وقد خلصنا إلى النتائج الآتية:

- قدرة القاسم على توظيف الكثير من معاني الثورة والإنجيل والفاظهما في شعره. ومرد ذلك إلى الانفتاح الثقافي الذي يعيشه الفرد داخل حدود عام (1948م).
- إنَّ سميحاً يقتبس من القرآن الكريم ألفاظاً ومعاني آياتٍ كاملة؛ فهو يصبغ شعره بالألوان والأصباغ القرآنية عمداً وتلقائياً لإثراء الصور الشعريَّة التي تُعطي دلالاتٍ وإيحاءاتٍ مُغايرة لمعناها الأصليَّة.
- إنَّ لدى القاسم تعدداً وتنوعاً في الدلالات الخاصة بالقدس، ليس باعتبارها مساحةً جغرافيَّةً فحسب، بل لأنها تشكيلٌ روحيٌّ ودينيٌّ مُشبعٌ بالحضورِ التاريخيِّ العربيِّ الإسلاميِّ، ولا يُمكنُ اقتلاعه من النفوس.
- قدرة سميح القاسم على التَّواصلِ مع الموروثِ الشعبيِّ من خلالِ توظيفِ الأسطورة.

- انتهى -

1. جواد بحر النتشة، مكانة بيت المقدس بين نصوص الوحي وحركة الإنسان، ص 23.
2. سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة (مجموعة شعرية)، مج4، ص32.
3. المصدر نفسه، مج4، ص35.
4. إبراهيم نمر موسى، ذاكرة المكان وتجلياتها في الشعر الفلسطيني المعاصر، مجلة عالم الفكر، ص 71.
5. عبد الوهاب المسيري، اليهود واليهودية والصهيونية، ص 15.
6. يوسف يوسف، القدس المرجعية الدينية شكل آخر للصراع، مجلة صامد الاقتصاد، ص107.
7. سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، مج4، ص25.
8. المصدر نفسه، مج4، ص32.
9. القرآن الكريم، سورة الإسراء، آية (1).
10. يوسف يوسف، القدس المرجعية الدينية شكل آخر للصراع، ص 108.
11. رقية زيدان، التغير الدلالي في شعر سميح القاسم، رسالة ماجستير غير منشورة، نابلس، جامعة النجاح الوطنية، 2001م، ص 10.
12. سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، مج3، ص148.
13. المصدر نفسه، مج3، ص142.
14. المصدر السابق، مج3، ص142.
15. إبراهيم نمر موسى، توظيف الشخصيات التاريخية في الشعر الفلسطيني المعاصر، مجلة عالم الفكر، ص 37.
16. عادل الأسطة، القدس في الشعر العربي المعاصر، مجلة الشعراء، ص 48.
17. سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، مج1، ص144.
18. إبراهيم أنيس وزملاؤه، المعجم الوسيط، مادة : أخذ.
19. سميح القاسم، أخذة الأميرة يبوس، ص 65.
20. المصدر نفسه، ص 65.
21. المصدر نفسه، ص 67.
22. المصدر نفسه، ص 67.
23. المصدر نفسه، ص 68.
24. المصدر نفسه، ص 69.
25. المصدر نفسه، ص 69.
26. المصدر نفسه، ص 70.
27. المصدر نفسه، ص 70.
28. سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، مج3، ص385.
29. المصدر نفسه، مج3، ص145.
30. رقية زيدان، التغير الدلالي في شعر سميح القاسم، ص 133.
31. سميح القاسم، الأعمال الشعرية الكاملة، مج1، ص286.
32. المصدر نفسه، مج1، ص 272.
33. المصدر نفسه، مج1، ص273.
34. المصدر نفسه، مج1، ص274.

## قائمة المصادر والمراجع والدوريات

1. الأسطة، عادل، القدس في الشعر العربي المعاصر، (مجلة الشعراء، العدد 22، 2003م).
2. أنيس، إبراهيم وزملاؤه، المعجم الوسيط، (مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1964م).
3. زيدان، رقية، التغير الدلالي في شعر سميح القاسم، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2001م).
4. القاسم، سميح، أخذة الأميرة يبوس، (دار النورس الفلسطينية للصحافة والنشر، القدس، 1990م).
5. القاسم، سميح، الأعمال الشعرية الكاملة، (دار الهدى، 1991م)، مج4.
6. المسيري، عبد الوهاب، اليهود واليهودية والصهيونية، (دار الشروق، بيروت، 1999م).
7. موسى، إبراهيم نمر، توظيف الشخصيات التاريخية في الشعر الفلسطيني المعاصر، (مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 33، العدد الثاني، 2004م).
8. موسى، إبراهيم نمر، ذاكرة المكان وتجلياتها في الشعر الفلسطيني المعاصر، مجلة عالم الفكر، (الكويت، العدد الرابع، مج 35، أبريل - يونيو 2007م).
9. الننتشة، جواد بحر، مكانة بيت المقدس بين نصوص الوحي وحركة الإنسان، (مركز دراسات المستقبل، الخليل، 2006م).
10. يوسف، يوسف، القدس المرجعية الدينية شكلاً آخر للصراع، (مجلة صامد الاقتصاد، العدد 127، آذار، 2002م).